Relations between the Mamluk State and the Kingdom of Sicily (659AH-661AH/1260AD-1262AD)

Dr. Ghada Hassan •

(Received 12 / 12 / 2021. Accepted 3 / 3 / 2022)

□ ABSTRACT □

This study aims to examine the nature of the relations between the Mamluk state and the Kingdom of Sicily during the reign of Sultan Al-Zahir Baybars and Emperor Manfred Hohenstaufen, during a crucial period in the history of the two states. The Mamluk state was in the process of being established, and the Kingdom of Sicily was trying to preserve its existence and survival, and protect itself from external dangers. The research also seeks to identify the political and economic factors that contributed to the establishment of such relations, and to the role played by diplomacy in rapprochement and closer ties between the two countries, through the exchange of embassies, correspondence and gifts.

Keywords: Mamluks, Kingdom of Sicily, politics, embassies, Ibn Wasil

• **Associate professor of the department of history, Faculty of Arts, University of Tishreen. boudihassan@yahoo.fr**

العلاقات بين دولة المماليك ومملكة صقلية (659هـ-661هـ /1260م-1262م)

• د. غادة حسن

(تاريخ الإيداع 12 / 12 / 2021. قبل للنشر في 3 / 3 / 2022)

□ ملخّص □

تهدف هذه الدراسة إلى بحث طبيعة العلاقات بين دولة المماليك ومملكة صقلية في عهد السلطان الظاهر بيبرس والإمبراطور مانفرد هوهنشتاوفن، في فترة مصيرية من تاريخ الدولتيين، إذ كانت الدولة المملوكية في طور التأسيس، ومملكة صقلية تحاول الحفاظ على وجودها وبقائها، وحماية نفسها من الأخطار الخارجية. كما يسعى البحث إلى التعرف على العوامل السياسية والاقتصادية التي ساهمت في قيام مثل هذه العلاقات، وإلى الدور الذي مارسته الدبلوماسية التقارب وتوثيق الروابط بين الدولتين، وذلك من خلال تبادل السفارات والمراسلات والهدايا.

الكلمات المفتاحية: المماليك، مملكة صقلية، سياسة، سفارات، ابن واصل.

*أستاذ مساعد ، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة تشرين، اللاذقية، سورية.boudihassan@yahoo.fr

مقدمة

كانت جزيرة صقلية[1] من البلدان الأوربية الهامة على صعيد علاقاتها بالدولة المملوكية بمصر وبلاد الشام وتعود جذور هذه العلاقة التي تميزت بالرقي والمصداقية من قبل الطرفين إلى عصر الدولة الأيوبية وتحديداً إلى عهد الكامل الأيوبي (614-636هـ/1218-1238م)[2] الذي كانت تربطه علاقة وطيدة مع فريديريك الثاني هوهنشتاوفن حاكم الإمبراطورية الرومانية المقدسة ومملكة الصقليتين وهما نابلي وصقلية[3]. وقد تبادل الطرفان عدة سفارات كان الهدف منها البحث في مسائل علمية ورياضية وفلسفية. فقد عرف عن فريدريك إعجابه بالحضارة العربية الإسلامية واهتمامه بتراث المسلمين، إذ أمر بمتابعة ترجمة العلوم الإسلامية إلى اللغة اللاتينية، كما كان يتكلم اللغة العربية وعدة لغات أخرى[4]. وكان قد طلب من الملك الكامل أن يمدّه بالمخطوطات الإسلامية فأمدّه بها[5]، وبذلك أصبحت صقلية في عهده مركزاً هاماً لانتقال الحضارة الإسلامية إلى أوروبا. استمرت العلاقات الطيبة بين فريدريك الثاني والملك الصالح نجم الدين أيوب[6] الذي خلف والده في حكم مصر، فتبادل الطرفان المراسلات والسفارات لتأكيد علاقات الود والصداقة، وقد تطورت هذه العلاقات الطيبة إلى تعاون أمني جاء بالنفع لكلا الطرفين. إذ قام فريدريك الثاني بإعلام الصالح أيوب عن

---

[1] صقلية بثلاث كسرات وتشديد اللام والياء أيضاً مشددة والبعض يقول بالسين، وأكثر أهل صقلية يفتحون الصاد والم وهي من جزائر البحر المتوسط، بينها وبين أفريقية مائة وأربعون ميلاً. وهي جزيرة خصبة كثيرة البلدان والقرى وبها نحو ثلاث وعشرين مدينة وثلاثة عشر حصناً. وبه جبل النار الذي يزعم الروم أن كشراً من الحكماء الأولين كانوا يدخلون إلى الجزيرة لمشاهدة عجائبه واجتماع النار والثلج فيه...وحاضرة هذه الجزيرة مدينة بلو، ومن أكبر مدنها الخالصة"، الحموي (شهاب الدين ياقوت ت. 626هـ/1228م)، معجم البلدان، ج5، دار صادر، بيروت، 1995، ص 373-376.

[2] الملك الكامل محمد كان مهيباً حازماً سديد الرأي حسن التدبير لمماليكه، عفيفاً عن الدماء. يحب أهل العلم ويؤثر مجالستهم، وكان يناظر العلماء وعنده مسائل غريبة يمتحن بها، فمن أجاب عنها قدمه وحظي عنده". للمزيد انظر ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم ت. 697هـ/1297م)، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تح. سعيد عبد الفتاح عاشور وحسنين محمد ربيع، ج4، مطبعة دار الكتب والمكتبة الوطنية للطباعة، 1972، ص 156-158، المقريزي (أحمد بن علي ت. 841هـ/1442م)، االسلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق مصطفى زيادة، ج .1-ق1، ص 259.

[3] فريدريك الثاني هو من أب ألماني هنري السادس وأم إيطاليا كونستانس وريثة عرش صقلية. حكم الإمبراطورية الرومانية المقدسة التي تضم حدود ألمانيا وإيطاليا وصقلية، وبذلك انتقل الحكم في صقلية من الأسرة النورماندية إلى أسرة الهوهنشتاوفن الألمانية. وقد حكمت أسرة الهوهنشتاوفن هذه الإمبراطورية بين عامي 561-667هـ/1138-1268م. للمزيد انظر حمزة (عادل عبد الحفيظ)، العلاقات السياسية بين الدولة الايوبية والامبراطورية الرومانية المقدسة زمن الحروب الصليبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2001، ص245-272.

[4] سالم (السيد عبد العزيز)، السيد عبد العزيز(سحر)، دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 2004، ص181.

[5] حمزة، العلاقات السياسية، ص 341-342.

[6] الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الكامل ولد سنة 603هـ/1206م بالقاهرة. تولى الملك سنة 638هـ/1240م، وتوفي أثناء الحملة الفرنجية السابعة على مصر سنة 647هـ/1249م وكان مهيباً عالي الهمة عفيفاً شديد الوقار. ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ج5، ص 395-396، الصفدي (صلاح الدين ت. 762هـ/1363م)، الوافي بالوفيات، تح. تركي مصطفى وأحمد الأرناؤوط، ج 10، دار احياء التراث العربي، بيروت، 2000.

تحركات وأهداف الحملة الفرنجية السابعة التي قادها ملك فرنسا لويس التاسع[1]، وهي حملة استهلت نشاطها العدواني بالهجوم على مدينة دمياط[2]. لم يكتف الصالح أيوب لما حصل عليه من معلومات عن الحملة من خلال رسالة الامبراطور، بل طلب منه المساعدة العسكرية لصد هذه الحملة بموجب معاهدة التحالف والدفاع المشترك بين الإمبراطورية الرومانية المقدسة والدولة الأيوبية[3].

لم يؤثر انتقال الحكم من الأيوبيين إلى المماليك في مصر والشام على العلاقات المملوكية–الصقلية بل استمرت خاصة في الفترة الأولى من حكم دولة المماليك البحرية (648–783هـ/1250–1381م)، لكن هذه العلاقات لم تكن موضوع اهتمام المؤرخين في المشرق العربي الإسلامي إما لكونها غير ذات أهمية في نظرهم، وإما أنها كانت سراً من أسرار الدولة العليا، واكتفوا في مؤلفاتهم بذكر بعض الإشارات المتناثرة هنا وهناك. ومهما يكن من أمر، فمن الثابت أن هناك علاقات ودّ وصداقة كانت قد نشأت بين صقلية وحاكمها مانفرد بن فريدريك (656–665هـ/1258–1266م)[4] وبين السلطان الظاهر بيبرس[5]. تبادل الطرفان خلالها الوفود والهدايا، والسؤال الذي يطرح نفسه: ما هي العوامل التي أدت إلى قيام هذه العلاقات؟ وكيف تمثلت الاتصالات بين الطرفين؟ من الواضح أن العلاقات المملوكية–الصقلية في فترة البحث كانت محدودة الجوانب إذ أنها لم تشمل النواحي السياسية والعسكرية واقتصرت على الناحية الدبلوماسية ويعود ذلك إلى انشغال الإمبراطورية المقدسة وحاكمها مانفرد بحماية أرضه من أطماع البابوية وحلفائها في تلك الآونة، بالإضافة إلى انشغال سلطنة المماليك في عهد الظاهر بيبرس بالخطر الخارجي المتمثل بالمغول في فارس والفرنجة في الساحل الشامي. وعلى الرغم من قلة المعلومات الواردة في المصادر عن علاقة مصر بصقلية في عصر المماليك، فقد اجتمعت عدة عوامل اختلفت في مضامينها وأدت إلى قيام علاقات دبلوماسية بين الدولتين.

أهمية البحث وأهدافه

تهتم هذ الدراسة بالبحث في العلاقات بين الدولة المملوكية وصقلية خلال عهد الظاهر بيبرس والإمبراطور مانفرد هوهنشتاوفن، وتهدف إلى معرفة العوامل السياسية والاقتصادية التي ساهمت في قيام هذه العلاقة. كما تركز على كشف طبيعة العلاقات من خلال تحليل السفارات المتبادلة ومهامها بين الدولتين.

---

[1] لويس التاسع ملك فرنسا بين عامي 623–669هـ/1226–1270م) خلفاً لوالده لويس الثامن. نشأ نشأة دينية خالصة دفعته للقيام بحملتين ضد المشرق العربي الإسلامي، الحملة الفرنجية السابعة ضد مصر والثامنة ضد إفريقيا (تونس) حيث توفي هناك متأثراً بالمرض. للمزيد انظر توراو (بيتر)، الظاهر بيبرس، تر. محمد جديد، قدمس للنشر والتوزيع، ط2، ص 45–54.

[2] عاشور (سعيد عبد الفتاح)، الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى، ج2، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط10، 2010، ص 1055.

[3] أرسل فريدريك الثاني في عام 647هـ/1248م إلى حاكم مصر رسول مع رسالة، وقد ذكر هذا الرسول أن الامبراطور أرسله في السر إلى "الملك الصالح نجم الدين لأعرفه قصد رايد فرنس على الديار المصرية وأحذره منه، وأشير عليه بالاستعداد". للمزيد انظر ابن واصل مفرج الكروب، ج4، ص 247، المقريزي (أحمد بن علي ت. 845هـ/1441م)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والأثار، تح. محمد زينهم ومديحة الشرقاوي، ج1، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1988، ص 219، حمزة، العلاقات السياسية، ص 347.

[4] كان مانفرد وصي على عرش صقلية عن ابن أخيه الطفل كونراد الثاني، ولكنه استولى على العرش في عام 656هـ/1258م، واستمر بحكم المملكة حتى مقتله عام 665هـ/1266م. ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص 233–234.

[5] الملك الظاهر بيبرس: مملوك من قواد السلطان الصالح أيوب، ولد بأرض القبجاق عام 625هـ/1228م تقريباً، وتوفي 676هـ/1277م 676هـ/1277م بعد أن حول دولة المماليك من دولة ناشئة إلى دولة قوية. للمزيد انظر توراو، الظاهر بيبرس، 25–30، 95–97.

منهجية البحث

اعتمد البحث المنهج التاريخي الذي يقوم على جمع المادة التاريخية من أصولها ودراستها وتحليلها واستقراء ما أمكن من المعلومات التي تخدم موضوع الدراسة والبحث، ومن ثم صياغتها في قالب تاريخي، وتقديمها بشكل علمي مدروس.

أولا-العوامل السياسية:

واجه المماليك في بداية قيام دولتهم العديد من الازمات الداخلية التي تمثلت في عدم استقرار الأوضاع الداخلية الناتج عن النزاع فيما بينهم على السلطة. كما واجهوا منازعة الأمراء الأيوبيين لهم في بلاد الشام ورفضهم الاعتراف بحكمهم لمصر. تزامن ذلك مع ظهور المغول الايلخانيين[1] وتأسيس دولتهم في بلاد فارس وتهديدهم المستمر لدولة المماليك. وإلى جانب المغول كان هناك مملكة أرمينيا الصغرى في كيليكيا[2] وبقايا الامارات الفرنجية في الساحل الشامي[3]، بالإضافة إلى البابوية والغرب الأوروبي. وقد قامت البابوية بإرسال عدة سفارات إلى إيلخانات المغول من أجل دعوتهم إلى اعتناق المسيحية وتشكيل تحالف عسكري للقضاء على المماليك في مصر واستعادة الأراضي المقدسة. وعلى الرغم من فشل تحقيق الهدف الأول إلا أنهم نجحوا في استخدام المغول كتهديد دائم ضد المماليك خلال القرن السابع والثامن الهجريين/الثالث والرابع عشر الميلاديين[4].

تمكن المماليك من تدعيم مركزهم الجديد بانتصارهم في معركة عين جالوت[5] التي أوقفت تقدم المغول إلى الشام ومصر، وبعد انتصار الظاهر بيبرس عليهم في موقعة حمص سنة 659هـ/1260م[6] وانتهاء خطرهم مؤقتاً، وجه السلطان سياسته نحو بلاد الشام والعمل على استتباب أمر السياسة الداخلية والأوضاع فيها نتيجة للقلاقل التي كان

---

[1] أسس هولاكو ايلخانية فارس في عام 659هـ/1260م، وكانت تابعة للخان الكبير في قراقورم. كانت تبريز هي عاصمة هذه الدولة التي استمرت حتى عام 7335هـ/1235م، وعلى الرغم من اعتناق حكامها للدين الإسلامي منذ نهاية القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي إلا أن الحرب المملوكية الإيلخانية لم تتوقف. للمزيد انظر النعيمي (رحمة)، العلاقات السياسية لدولة إيلخانات المغول 658هـ/1260م-756هـ/1355م، رسالة دكتوراه، مكة المكرمة، 2013، ص 201-293.

Amitai-Preiss, Mongols and Mamluks: The Mamluk-Ilkhanid war, 1260-1281, Cambridge University Press, Cambridge. New York, 1995, 210 pp.

[2] نشأت مملكة أرمينيا الصغرى على السواحل الشمالية الشرقية من البحر المتوسط على يد المهجرين الأرمن، وفي نهاية القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي سيطرت على مساحات واسعة من الأراضي التي كانت محط نزاع بين الملسمين والبيزنطيين. وقد شغلت دوراً هاماً في تاريخ المنطقة في عصر المماليك الذين قضوا عليها عام 777هـ/1375م. للمزيد حول أرمينيا الصغرى وعلاقاتها مع المماليك انظر

STEWART, A. D., *The Armenia Kingdom and the Mamluks war and diplomacy during the reigns of Het'um II (1289-1307)*, Brill, Leiden. Boston. Koln, 2001.

[3] كانت أراضي الفرنجة موزعة على ثلاث إمارات، مملكة القدس في عكا وكونتينية طرابلس وإمارة أنطاكية، وكانت طرابلس وأنطاكية عشية العصر المملوكي بيد النورمانديين. إلى جانب هؤلاء كان هناك الرهبانيات العسكرية الدينية أمثال الداوية والإسبتارية والتيتون. للمزيد انظر، راينسمان (ستيفن)، تاريخ الحملات الصليبية، تر. نور الدين خليل، ج3، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ص 473-474، 843-842-843.

[4] النعيمي، العلاقات السياسية، ص 369-446.

[5] موقعة عين جالوت حدثت بين المغول بقيادة كتبغا والعرب المسلمين بقيادة الملك المظفر قطز في منطقة عين جالوت قرب بيسان في رمضان 658هـ/أيلول 1260م، وانتصر فيها المسلمون، وقتلوا قائد المغول. للمزيد انظر توراو، الظاهر بيبرس، ص 83-87.

[6] يذكر ابن أبي الفضائل عن أهمية هذه المعركة في النهج السديد بقوله:" وفي سنة تسع وخمسين وستمائة، وفيها كانت الكرة على التتار بحمص...والمسلمين ألف وأربعمائة فارس وكان التتار في ستة آلاف فارس...وحملوا على المسلمين حملة رجل واحد، ويقال أن هذه الوقعة كانت أعظم من وقعة عين جالوت لكثرة التتار وقلة المسلمين.. وقتلوا عن آخرهم والذي سلم من التتار فإنهم عادوا إلى حلب". للمزيد انظر المفضل (ابن أبي الفضائل ت. 757هـ/1358م)، النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، تح. إيدجار بلوشيه، ج12، باريس، 1983، ص 416-418.

يقوم بها بقايا الأيوبيين هناك[1]. ثم بدأ سياسته الرامية إلى طرد المغول بعيداً عن حدود الدولة المملوكية في شمال العراق، ومعاقبة الإمارات الفرنجية التي عاونت المغول، ولضمان نجاح هذه الخطة حرص الظاهر بيبرس على أن يؤمن سياسته الخارجية بمعاهدات واتفاقيات يضمن بها تقوية جبهته من ناحية واكتساب أعوان وحلفاء ضد خصومه من ناحية أخرى، فبدأ العلاقات السلمية مع الإمبراطور مانفرد حاكم صقلية، الذي كان المؤرخون العرب المسلمين يسمونه "الأنبرور"، ويمكن تفسير سبب قيام هذه العلاقات من جهة المماليك بأنه محاولة منهم لتأمين حدودهم من جهة البحر والاستفادة من موقع صقلية.

لقد تمتعت صقلية بموقع استراتيجي فريد، وعسكري كبير مؤثر فهي إحدى مفاتيح قلب البحر المتوسط والنافذة المطلة على إيطاليا والمتحكمة في معظم الطرق البحرية والتجارية. وبناءً على هذا ربما أدخل بيبرس في حسبانه، أثناء حروبه ضد دويلات الفرنج في المشرق، إمكانية قيام الغرب الأوربي بحملة فرنجية جديدة لمساعدة إخوانهم في العقيدة في الأراضي المقدسة، وافترض أن مثل هذه الحملة يمكن أن تستخدم الطريق البحري إلى بلاد الشام ومصر، لذلك فإن دولة مسيحية متحالفة معه يمكن أن تقطع على جيش من الفرنج طريق المرور. وهكذا يمكن القول إن السلطان الظاهر أراد أن يؤمن لنفسه التغطية من قبل الامبرطور مانفرد، من أجل هجماته على دول الفرنج والمغول في المشرق العربي الإسلامي، وعلى ذلك فإن صقلية بموقعها الذي يبعد حوالي "ثمانية عشر يوماً في البحر إذا طابت الريح"[2] ستشكل حصناً منيعاً لحماية شرق المتوسط، وستكون بمثابة نقاط إنذار سريعة ومتقدمة تدفع عنه عامل المفاجآت، أي من الممكن أن تقوم صقلية بانذار السلطان في حال وجود استعدادات أو هجمات من قبل البابوية والغرب الأوروبي على سواحل بلاد الشام ومصر، خاصة أن المماليك لم يملكوا قوة بحرية فعالة تمكنهم من مواجهة الاساطيل الأوروبية المتفوقة ولذلك فإن الاستعانة بقوة صقلية البحرية ستساعدهم في الدفاع عن مصالحهم في هذه الجهة. كما أن مانفرد يستطيع أن يفسد نظام المواصلات البحرية التي كانت تربط البابوية وفرنسا بمملكة أرمينيا الصغرى، ومغول فارس الموالين للنصارى، أعداء السلطان بيبرس الأشداء[3].

كانت صقلية، من جهتها، ترى نفسها مهددة من الغرب الأوربي وخاصة من البابوية التي كانت على علاقة سيئة مع أسرة اهوهنشتاوفن حاكمة مملكة الصقليتين التي شملت صقلية وجنوب إيطاليا منذ عهد فريدريك الثاني، وقد قام البابا بإصدار قرار تحريم ضده وضد ولده مانفريد. ويعود السبب الرئيس في هذا القرار إلى تأخر فريدريك بحملته إلى المشرق التي كان قد وعد البابا بالقيام بها، وبقي البابا جريجوري التاسع (625-639هـ/1227-1241م) لسنوات يحض الإمبراطور، ويلح عليه للوفاء بوعده، وفريدريك يتباطأ ويسوف مما دفع البابا إلى إصدار قرار بحرمانه[4]. وعلى الرغم من قيام فريدريك فيما بعد بالحملة التي عرفت بالحملة الفرنجية السادسة سنة 626هـ/ 1229م إجابة لنداء البابا

---

[1] توراو، الظاهر بيبرس، ص 131-136.

[2] الدواداري (عبد الله بن أيبك ت. 736هـ/1335م)، كنز الدرر وجامع الغرر، الدرة العليا في أخبار بدء الدنيا، تح. بيرند راتكة، ج1، قسم الدراسات الإسلامية بالمعهد الألماني للآثار، القاهرة، 1982، ص 178.

[3] توراو، الظاهر بيبرس، ص 124.

[4] حمزة، العلاقات السياسية، ص 298، سالم والسيد عبد العزيز، دراسات، ص 179. يقصد بالتحريم كنوع من العقوبة، وبالتالي حرر البابا جميع رعايا وأتباع فريدريك ومانفرد من أيمان الطاعة والتبعية التي أقسموها لهما. ويوجد قرارات حرمان صغرى، وقرارات حرمان كبرى. للمزيد انظر عاشور (سعيد عبد الفتاح)، أوربا العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1986، ج1، ص 396،354، ج2، ص 3.

وليلغي قرار الحرمان الذي أصدره ضده، ولإن الإمبراطور أصبح يرى نفسه صاحب الحق الشرعي في مملكة بيت المقدس[1]، إلا أن العلاقات بين الطرفين لم تتحسن، لأن البابوية أرادت القضاء على أسرة هوهنشتاوفن، والسيطرة على المملكة بشكل مباشر. كما كان لاهتمام ملوك صقلية بالحضارة العربية الإسلامية دوراً كبيراً في هذا الأمر، إذ ان هذه الاهتمام والتقارب مع المسلمين أغضب رجال الدين المسيحي فاتهموا ملوكها بالهرطقة والخروج عن الدين[2]. وكان ابن واصل قد أشار إلى العلاقة السيئة والمتوترة بين البابوية وحكام صقلية فقال: "وهؤلاء كلهم (يقصد فريدريك وولديه) ممقوتين عند البابا خليفة الفرنج صاحب رومية لميلهم للمسلمين"[3]. ومنذ عام 652هـ/1254م أعلن البابا أوربان الرابع (660-663هـ/1261-1264م) نفسه وصياً على أراضي أسرة هوهنشتاوفن في جنوب إيطاليا وصقلية وعقد اتفاقاً سرياً مع شارل دانجو[4] نص على منحه وتسليمه المملكة مقابل الاستيلاء عليها والقضاء على مانفرد[5]. واستناداً إلى هذا الأمر يمكن القول إن تحالفاً مع مصر يمكن أن يعين حاكم صقلية مانفرد في مواجهة هذه الأخطار، أو على الأقل من الممكن أن تقيد طاقات الخصم المشترك في أماكن أخرى.

ثانياً-العوامل الاقتصادية

سعى الغرب الأوربي إلى إضعاف دولة المماليك والقضاء عليها، وبعد فشله في تحقيق انتصار عسكري عليها عمل على ضرب مصالح النشاط التجاري المملوكي الذي يمثل المصدر الرئيس لغنى الدولة المملوكية وقوتها بعد احتكار مصر لطريق التجارة الوحيد الآمن والمستقر والبعيد عن سيطرة وتهديد المغول بين الشرق والغرب. ولتحقيق هذا الهدف فرضت البابوية حصاراً اقتصادياً على مصر يحاربها في أعظم موارد ثروتها وقوتها وهي التجارة، وأصدرت العديد من المراسيم لمنع التجار الأوربيين من التردد على موانئ مصر وبلاد الشام، وهددت البابوية بتوقيع قرار الحرمان من الكنيسة لكل من يخالف أوامرها من تجار الفرنج بالإضافة إلى مصادرة أموالهم وبضائعهم. كما حظرت عمليات البيع والشراء وخاصة السلع التي لها أهمية استراتيجية كالأخشاب والحديد والعبيد[6].

لم تتوافر هذه المواد الأولية في مصر، وكانت الدولة المملوكية بحاجة ماسة لها لتقوية وتدعيم جيشها في هذه المرحلة لمواجهة العدوان الفرنجي من الغرب، والخطر المغولي من الشرق، وكانت التجارة هي السبيل الوحيد لحصول هذا الجيش على عناصره الأساسية: العنصر البشري من المماليك، والحديد والخشب والمعدات الحربية والمعادن الثمينة مثل

[1] في سنة 622هـ/1225م تزوج فريدريك وريثة عرش المملكة الفرنجية في بيت المقدس إيزابيلا بنت جان دي بيرن التي توفيت بعد ثلاث سنوات من زواجها، وبقي فريدريك يطالب بمملكة بيت المقدس كإرث لزوجته حتى خروجه بحملته نحو الشرق. للمزيد انظر حمزة، العلاقات السياسية، ص 298.

[2] سالم والسيد عبد العزيز، دراسات، ص180.

[3] ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص 248.

[4] شارل دانجو أمير مقاطعة أنجو الفرنسية وشقيق ملك فرنسا لويس التاسع، استخدمته البابوية للتخلص من أسرة الهوهنشتاوفن حكام مملكة الصقليتين (نابلي وصقلية)، ولقاء ذلك يؤل حكم الصقليتين إليه. وقد تمكن شارل فعلا من الزحف على جنوب إيطاليا والقضاء على مانفرد في عام 664هـ/1265م، وارتقى عرش الصقليتين. للمزيد انظر رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص 499-500.

[5] عاشور، أوربا العصور الوسطى، ج1، ص 559-560.

[6] عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص 402، توراو، الظاهر بيبرس، ص 157، طقوش (محمد سهيل)، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، دار النفائس، القاهرة، ط1، 1997، ص 132.

الذهب والفضة والاقتصادية مثل النحاس والرصاص والقصدير ولقد ساهم التجار الاوربيين وخاصة الإيطاليون في توفير هذه العناصر متحدين بذلك أوامر البابا[1].

أدرك المماليك وعلى رأسهم السلطان الظاهر بيبرس إنه للتخلص من هذا الحصار لا بد من تنويع مصادر تجارتهم وذلك بعقد علاقات تجارية مع بعض الممالك الأوربية التي تعارض البابوية. وقد اتسم بيبرس بقدر من الوعي بضرورة وأهمية توطيد هذه العلاقات، وكانت صقلية من أولى الدول التي تطلع لها لتنفيذ هذه السياسة. عرف عن مملكة صقلية امتلاكها لخيرات وإمكانيات زراعية وصناعية ومعدنية كبيرة أشار لها الرحالة العرب، ووصفوها جميعاً بأنها بلد الخير والعطاء وفيها من الموارد الزراعية والصناعية ما أدهش الجميع وشد الانتباه، وصورتها أقلامهم[2]. يشير الاصطخري إلى أن صقلية " بها من الخصب والسعة والزروع والمواشي والرقيق ما يفضل على سائر ممالك الإسلام المتاخمة للبحر"[3]، ويصفها الحموي بأنها "جزيرة خصبة كثيرة البلدان والقرى والأمصار...وبها عيون كثيرة وأنهار جارية..وهي كثيرة المواشي جداً من الخيل والبغال والحمير والبقر والغنم..وفيها معدن الذهب والفضة والنحاس والرصاص والزئبق، وجميع الفواكه على اختلاف أنواعها"[4]. ومما لا شك فيه أن الظاهر بيبرس أدرك ما تملكه صقلية من إمكانيات زراعية وصناعية ومعدنية هو بأمس الحاجة لها لبناء دولته الجديدة، وأراد التحرك بشكل سريع وبادر لإقامة علاقات صداقة مع حكامها لضمان الحصول على المواد التي يحتاجها، وأهمها الأخشاب والحديد لصناعة السفن وآلات الحصار المستخدمة في الحروب. وقد أكدت المصادر التاريخية على ارتباط جزيرة صقلية بطرق تجارية بحرية مع مصر مباشرة وغير مباشرة[5]، كما أكدت على وجود العديد من الصادرات المعدنية والنسيجية الصقلية في مصر[6]. هذا بالإضافة إلى إلى امتلاك صقلية للكثير من الموانئ التجارية الهامة التي من الممكن الاستفادة منها في حال إغلاق الموانئ الأوربية في وجه السفن الإسلامية استجابة لقرارات الحرمان من البابوية. وقد ارتبطت هذه الموانئ بعدة طرق تجارية مباشرة وغير مباشرة مع موانئ بلاد الشام ومصر[7].

أما بالنسبة إلى صقلية فمن المؤكد أنها لم يكن لها آنذاك حضور تجاري كبير، إذ اقتصر دورها على كونها محطة وسطى، ذات دور وأهمية ثانوية، إلا أنها عملت على تقوية صلاتها التجارية مع القوى الفاعلة في هذا المجال لأنها هي أيضاً كانت محاصرة من قبل البابوية ولذلك حاولت الحصول على ما تحتاجه، وخاصة المنتوجات الشرقية من التوابل والحرير وغيرها بإقامة علاقات مباشرة مع مصر المسيطرة على أهم الطرق التجارية آنذاك دون وساطة التجار الأوربيين.

---

[1] مصطفى (نادية محمود)، العصر المملوكي من تصفية الوجود الصليبي إلى بداية الهجمة الأوربية الثانية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، 1996، ص 51.

[2] الحبوبي (محمد رحيم هاشم محسن)، صقلية دراسة في أحوالها الاقتصادية من خلال المصادر البلدانية من القرن 3-9هـ/9-15م، رسالة دكتوراه، جامعة الكوفة، 2012، 31-58.

[3] الأصطخري (إبراهيم بن محمد ت. 346هـ/957م)، مسالك الممالك، تح. محمد جبار عبد العالي الجيني، دار القلم، القاهرة، 1961، ص 51.

[4] الحموي، معجم البلدان، ج3، ص 416.

[5] الحبوبي، صقلية، ص 132-133.

[6] المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج2، ص 177.

[7] الحبوبي، صقلية، ص 128-133.

ثالثا-الاتصالات الأولى

اتخذت الاتصالات بين الدولة المملوكية وصقلية الطابع الدبلوماسي فتبادل الطرفان السفارات والهدايا التي كان يحملها السفراء أو المبعوثون معهم. ومما لا شك فيه أنه كان لهذا النشاط الدبلوماسي بين المماليك وصقلية اعتبارات وأهداف سياسية مؤكدة من الممكن معرفتها من خلال تحليل هذه السفارات المتبادلة، وعلى ضوء المعلومات المتفرقة في المصادر العربية الإسلامية التي سجلت لنا ثلاثة سفارات في فترة البحث.

1-سفارة جمال الدين ابن واصل:

قبل الخوض في تفاصيل هذه السفارة لا بد من الحديث أولا عن معنى السفارة والسفير. تعد السفارة نوع من أنواع التواصل الحضاري بين الشعوب والتي توثق العلاقات بين الدول وترفع بينها الحواجز، وفض المنازعات وتدعيم السلام، وهي البعثات التي تقوم الدول بإرسالها إلى الدول الأخرى لإدارة العلاقات فيما بينها بهدف تحقيق المنافع والمصالح المشتركة من خلال عقد هدن وإبرام صلح أو التبادل التجاري[1].

كانت البعثة أو السفارة تتألف من السفير وحاشيته وهنا لا بد من الإشارة إلى وجود العديد من المصطلحات لتسمية من يقوم بهذه المهمة في المصادر العربية الإسلامية ومنها كلمة رسول وسفير وقاصد[2]. بالنسبة إلى كلمة رسول هي كلمة مشتقة من الفعل أرسل والذي يعني مبعوث أو وسيط. وكلمة رسول لها دلالات ومعاني في الدين والسياسة، فالرسول هو من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه، وهو عند الملوك " "بعث ولي الأمر لشخص او لبعثة معتمدة من قبله إلى جهة معينة لمباشرة مهمة معينة ومحددة في أجل يعينه ولي الأمر وينهيه"[3]. أما مصطلح سفير فإن استخدامه كان نادراً جداً جداً في هذه الفترة أي في النصف الثاني من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، ونجده فقط في النصوص المتعلقة بكتب الإنشاء في العصر المملوكي فالقلقشندي في كتابه "صبح الأعشى" عرف السفير بأنه "الرسول والمصلح بين القوم"[4]. كما عرفه ابن منظور فقال:" السفير (جمع سفراء) هو المصلح بين القوم والماشي في الصلح بينهم، والجمع سفراء"[5]. والمعنى المشترك بين السفير والرسول هنا نقل الأخبار والرسائل إلى الدول وبلاطاتها المختلفة والمفاوضات والحوار بشأن ما يهم الدولة[6].

---

[1] الشامي (علي حسين)، الدبلوماسية نشأتها وتطورها وقواعدها ونظام الحصانات والامتيازات الدبلوماسية، دار العلم للملايين، بيروت، 2007، ص 29-30

[2] استخدمت المصادر المملوكية كلمة قاصد والتي تعني مبعوث أو وسيط للدلالة على السفراء. لكن المؤرخ أميتاي بيرس وجد أن مصطلح قاصد له معنى آخر في المصادر المملوكية، إذ استخدمه المؤرخون من أجل الإشارة إلى الجواسيس الذين استخدمهم السلطان من أجل الاستطلاع في أراضي العدو (الأرمن والمغول والفرنجة). للمزيد انظر

Amitai-Preiss, *Mongols and Mamluks,* p. 140-141.

[3] ابن منظور (جمال الدين محمد بن مكي ت. 710هـ/1310م)، لسان العرب، ج11، دار صادر ودار بيروت، بيروت، 1956، ص 283-284، القلقشندي (شهاب الدين أحمد ت. 821هـ/1418م). صبح الاعشى في صناعة الانشا، ج1، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1913-1919، ص 116-118.

[4] القلقشندي، صبح الأعشى، ج6، ص 15.

[5] ابن منظور، لسان العرب، ج4، ص 370.

[6] ضميرية (عثمان بن جمعة)، السفارة والسفراء في الإسلام، د. ت، د .م، ص 29.

كان السفير يمثل رئيس الدولة ويتكلم بلسانه ويفاوض ويبرم المعاهدات والعقود نيابة عنه، وكان على السفير أن يتحلى ببعض الصفات الجسدية والخلقية والثقافية[1]. ولقد وضع العرب المسلمون قواعد وضوابط لاختيار الرسل والسفراء والمبعوثين، وكان يتم اختيارهم من فئات معينة هي فئة القضاة والفقهاء والعلماء والمحدثين وكبار موظفي الدولة من وزراء وأمراء وقادة جيوش، وكتاب مثل موظفي ديوان الأنشاء[2]. وكان المماليك يختارون سفرائهم من بين الشخصيات ذات المنزلة الرفيعة في المجتمع، والمعروفة بالفطنة والبلاغة والذكاء ورجاحة العقل وسرعة البديهة والحصافة في الكلام مما يجعلهم أهلاً لهذه المهمة الصعبة. وقد أورد العباسي في كتابه "ترتيب الأول" أهم الصفات التي يجب توافرها فيمن يرشح للسفارة ومنها: أن يكون صحيح العقل، حاضر البديهة، جيد العبارة، ظاهر النصيحة موثوقاً بدينه وأمانته، حسن الاستماع والتأدية، كتوماً للأسرار، عفيفاً عن الأطماع غير منهمك في الفواحش والسّكر[3]. فهل توافرت هذه الصفات بشخص جمال الدين ابن واصل ليتم اختياره سفيراً؟

ينحدر جمال الدين محمد بن سالم بن نصر الله بن واصل من بيت حموي عريق، كان والده فقيه قاضٍ، فاعتنى بتعليمه، وقد أتاحت مكانة أبيه أن يتعرف عن قرب إلى بعض ملوك عصره[4]، كما ساهمت في تبلور شخصيته اذ كان يصحبه في سفره. ولد في مدينة حماة[5] سنة 604هـ/1208م وتلقى فيها تعليمه. برع في علوم كثيرة منها أصول الدين والفقه والمنطق والهندسة والتاريخ. زار العديد من بلاد المشرق العربي الإسلامي وعواصمه خلال رحلاته المتواصلة فرحل إلى: دمشق[6]، الكرك[7]، بغداد[8]، القاهرة[1] وغيرهم. وقد ساهمت زيارته لهذه المدن في إثراء ثقافته.

---

[1] ابن الفراء (الحسين بن محمد ت. 527هـ/11132م)، رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة، تح. صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت، 1972، ص 35-36.

[2] ديوان الإنشاء: يشرف على تحرير الرسائل المتبادلة بين السلطان وولاته وامراءه وعماله في أقاليم السلطنة، فضلاً عن تحرير رسائل السلطان الى الدول الأجنبية، كما كانت تصدر عنه جميع المناشير والمراسيم والسجلات والتوقيعات والملاطفات، وفيه كانت تحفظ أو تخلد الرسائل الواردة من ملوك الدول الأخرى والمعاهدات والمهادنات والاتفاقيات الأخرى سواءً أكانت اسلامية أو غير إسلامية. للمزيد انظر HASSAN, G., Les relations diplomatiques entre les Mamelouks bahrides et les Etats chretiens en Orient (milieu au XIIIe-fin du XIVe siècle), These de doctorat, Universite Paris 1- Pantheon-Sorbonne, Paris, 2010, p. 176.

[3] العباسي (الحسن بن عبد الله ت.710هـ/1307م)، آثار الأول في ترتيب الدول، تح. عبد الرحمن عميرة، دار الجبل، بيروت، 1409هـ/1989م، ص 191-192.

[4] عاصر ابن واصل عدداً من الأمراء الأيوبيين في بلاد الشام والجزيرة، إذ بلغ عددهم خمسة أمراء وهم كل من: المعظم عيسى والملك الناصر داود أمبر الكرك، والملك الكامل صاحب مصر ودمشق، والمظفر تقي الدين محمود صاحب حماة، والصالح نجم الدين أيوب وابنه توران شاه في مصر. للمزيد حول علاقة ابن واصل بهؤلاء الملوك انظر أبو محسن (سمير حسين عبد الكريم)، خلفاء صلاح الدين عند ابن واصل في كتابه "مفرج الكروب في أخبار بني أيوب" دراسة تاريخية منهجية 589-648هـ/1194-1260م، رسالة ماجستير، غزة، 2103.

[5] حماه: مدينة كبيرة على نهر العاصي وفيها قلعة عظيمة. للمزيد انظر الحموي، معجم البلدان، ج2، ص 300.

[6] دمشق: قصبة الشام وجنة الأرض لحسن عمارتها. سميت بذلك لأنهم دمشقوا في بنائها أي أسرعوا. انظر الحموي، معجم البلدان، ج2، ج2، ص 426.

[7] الكرك: اسم لقلعة عظيمة في أطراف الشام من نواحي البلقاء وبحر القلزم وبيت المقدس والكرك أيضاً قرية كبيرة قرب بعلبك. الحموي، معجم البلدان، ج4، ص 453.

[8] بغداد: بناها أبو جعفر المنصور، وانتقل منها إلى الهاشمية وهي عاصمة بني العباس. للمزيد انظر الحموي، معجم البلدان، ج1، ص 458.

وصف ابن واصل بأنه كان عالماً متمكناً من علمه ويتمتع بمقدرة عالية في التعبير وذا بديهة تتصف بالسرعة، فضلاً عن مراسه بأساليب الكلام، وكان ذا ثقافة عالية. كما وصف بانه يمتاز بحدة الخاطر وبديهة الرأي والنجدة والإقدام والحنكة السياسية والثقافة المتنوعة العالية، كيف لا وهو الذي درس وألف في فنون الأدب والطب والمنطق، فهو "من بقايا أهل العلم وأحد الأئمة الأعلام وكان من أذكياء العالم"[2]. ففي مجلس المعظم توران شاه[3] أراد الأخير أن يختبر قضاته في مسألة فلم يلق جواباً من أحد لعدم معرفتهم بعلم المنطق، فتصدى ابن واصل للمسألة وشرحها فأعجب به السلطان وأقبل عليه وأصبح بعدها من رواد مجلسه[4]. ويبدو مما تقدم إن لهذه الصفات والمزايا التي تمتع بها ابن واصل –خاصة علمه وثقافته – كبير الأثر في اختياره سفيراً للملك مانفرد، فأراد السلطان الاستفادة من هذه الميزة للتقرب من الإمبراطور وإثارة اهتمامه. وقد عرف عن ملوك صقلية اهتمامهم بالعلماء العرب المسلمين ومعرفتهم الوثيقة بقدراتهم وتميزهم منذ زمن فردريك الثاني الذي كان تجري بينه وبين الملوك الأيوبيين محاورات في أشياء شتى: مسائل حكمية ومسائل هندسية ورياضية ليمتحن من عندهم من الفضلاء. فقد أرسل الملك الكامل الأيوبي له الشيخ شمس الدين الأرموي[5] الذي أقام عنده مكرماً مدة، وجرت بينهما محادثات علمية ومحاورات فلسفية[6]. كما صنف له كتاباً في المنطق "وأحسن إليه الإمبراطور إحساناً كبيراً"[7]. كما أن مانفرد نفسه كان محباً للعلم وميالاً للعلماء، وذلك استناداً إلى ابن واصل[8]. وهنا السؤال الذي يطرح نفسه ما هي المهمة التي كلف بها ابن واصل لدى الامبراطور مانفرد؟

تذكر المصادر العربية الإسلامية إنه في رمضان 659هـ/آب 1261 أرسل السلطان الظاهر بيبرس جمال الدين ابن واصل إلى الإمبراطور مانفرد[9]. ويفصل أبو الفداء لذلك فيذكر أنه عندما وصل إلى الإمبراطور احتفل به وعامله باحترام، وأقام عنده في مدينة أنبولية (نابولي)[10]، واجتمع معه عدة مرات[11]. وبعد أن أنتهى ابن واصل من سفارته التي

---

[1] القاهرة: بناها جوهر الصقلي بناءً على توجيهات الخليفة الفاطمي المعز لدين الله، وعندما انتقل إليها أصبحت عاصمة للخلافة الفاطمية. للمزيد انظر حسن (علي إبراهيم)، تاريخ جوهر الصقلي قائد المعز لدين الله الفاطمي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط2، 1963، ص 83-91.

[2] العزاوي (عباس)، التعريف بالمؤرخين في عصر المغول والتركمان، وزارة المعارف، 1957، ص 129.

[3] المعظم توران شاه بن الملك الصالح نجم الدين أيوب، ولاه والده على حصن كيفا في الشرق، وكان يستدعيه ولا يجيبه، لذلك كان يكرهه. قتل في محرم 648هـ، (1250م). للمزيد انظر ابن خلكان (أحمد بن محمد ت. 681هـ/1282م)، وفيات وأنباء أبناء الزمان، تح. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ج5، 1972، ص 89.

[4] ابن واصل، مفرج الكروب، ج6، ص15.

[5] الشيخ العلامة شمس الدين الأرموي أو سراج الدين الأرموي كان قاضي العسكر قبل تسميته قاضياً على قونية في بلاد الروم. للمزيد انظر ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص 243.

[6] حمزة، العلاقات السياسية، ص 241-242.

[7] ابن واصل مفرج الكروب، ج4، ص 242-243.

[8] ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص 234.

[9] ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص 248، أبو الفداء، المختصر، ج4، ص 38-39، الصفدي (خليل بن أيبك ت. 762هـ/1363م)، أعيان العصر وأعوان النصر، تح. علي أبو زيد، نبيل أبو عمشة، وآخرون، ج4، دار الفكر المعاصر ودار الفكر، بيروت-دمشق، 1998، ص447.

[10] أنبولية ويقال لها بوليه وهي مملكة على بحر الروم عند فم جون البنادقة. للمزيد انظر القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص 410.

[11] أبو الفداء، المختصر، ج4، ص 38.

لم تكشف المصادر شيئاً عن غرضها أو ما دار فيها من اتفاق أو حتى مدتها عاد إلى مصر. ويمكن تعليل هذا الصمت من وجهين:

الأول: أن الأمور التي ذهبت سفارة ابن واصل من أجلها سريَّة ولم يتمكن المؤرخون المعاصرون بطبيعة الحال معرفتها في وقتها، ولهذا اقتصرت معرفتهم واطلاعهم على أمور جانبية من مهمة ابن واصل.

الثاني: أن يكون ابن واصل قد نقل رسالة مكتوبة من السلطان بيبرس إلى مانفرد وكانت مهمته إيصالها في الغالب.

لكن المعلومات التي نقلها مصنفو التراجم وكتب التاريخ العام حول المهام التي كلف بها سفراء الدولة المملوكية في الخارج يمكن أن تعطي تصوراً عاماً عن مهمة ابن واصل والهدف منها. لقد أرسل سلاطين المماليك السفراء في بعثات إلى الخارج بمهام محددة من حيث الأهداف والمدة: تسليم رسائل السلطان، التفاوض على هدنة أو معاهدة، عقد تحالفات، التهاني والعزاء، توثيق الصلات التجارية والثقافية، وفض المنازعات. كما كانت إحدى الوظائف الأساسية للمبعوث مهمة الاستعلام وجمع المعلومات الاستخبارية، والتي ينبغي أن تسمح لبلده بالحصول على معرفة أفضل بالظروف المحيطة ببيئتها، أي جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات عن البلاد، والمنطقة التي كانوا يقيمون فيها: الوضع الاقتصادي، والجوانب الأيديولوجية والدينية، ونزاعات أو عداوات مع قوى أو شعوب أخرى تعدّ خطرة، وعلاقات التحالفات والتضامن مع الأطراف الأخرى، ونقاط القوة والضعف الإستراتيجية للبلد. واستناداً إلى هذا، وإدراكًا منه للأهمية الاستراتيجية لجمع المعلومات، أولى السلطان الظاهر بيبرس أهمية كبيرة لتأمين خدمات أكثر الرجال استنارة وكفاءة في السلطنة. وهكذا اختار أن يرسل إلى إمبراطور صقلية مانفريد، القاضي ابن واصل أحد أمهر علماء بلاطه للاستعلام عن هذه الدولة.

بالنظر إلى شخصية الإمبراطور الخاصة، فإن اختيار رجل مستنير موهوب ذو علم ومعرفة كبيرة مثل ابن واصل لا يمكن إلا أن يعزز التفاهم الجيد، وحتى شكل من الاحترام المتبادل، بين الرجلين. ويبدو أن السفير قد حرص على إرضاء فضول مانفريد الفكري، إذ نقل عن إحدى المقابلات التي أجراها مع الإمبراطور بهذه العبارات: "قال الإمبراطور: "يا قاضي ليس لدي ما أسألك عنه عن حلال وحرام في دينك الذي أنت فيه قاض العربية أو الفقه". ثم سأله ثلاثين سؤالاً عن مسائل تتعلق بعلم المناظر (الهندسة). في صباح اليوم التالي أجاب ابن واصل على هذه الأسئلة في مجلد صغير، مما أسبغ عليه احترام وتقدير الإمبراطور الذي رسم علامة الصليب وقال له: " سألناك عن أشياء لا يعرفها إلا الفلاسفة الأقدمون، فأجبت عنها وليس معك كتب ولا ما تستعين به، مثلك يكون قسيساً". وقد كان ابن واصل، على ما يبدو، ممتنًا جدًا لما قام به الإمبراطور معه، فقام بتأليف رسالة لمانفرد في المنطق، تُعرف باسم "الرسالة الأنبرورية" (أي الإمبراطورية)" [1]. ابن واصل نفسه عند عودته من مهمته، رسم صورة بليغة للإمبراطور وامتدحه ووصف أخلاقه ومزاياه فقال عنه: "كان فاضلاً، محباً للحكمة والمنطق والطب، مائلاً إلى المسلمين لأن مقامه في الأصل ومرباه بلاد صقلية، وهو وأبوه وجده كانوا ملوكها، وأهل تلك الجزيرة غالبهم المسلمون"[2]."وأضاف "ووجدته متميزاً ومحباً للعلوم العقلية يحفظ عشر مقالات من كتاب أقليدس"[3].

[1] ابن واصل، مفرج الكروب، ج6، ص 206، أبو الفداء، المختصر، ج4، ص 38، الصفدي، أعيان العصر، ج4، 1998، ص 447.

[2] ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص 243.

[3] أبو الفداء، المختصر، ج4، ص 39.

وبالفعل قدم ابن واصل للسلطان -بعد عودته من مهمته-وصفًا مفصلاً وحيويًا للغاية لوضع مدينة لوسيرا، التي كان معظم سكانها من المسلمين، على الرغم من أنهم كانوا في الأصل من صقلية "وبالقرب من البلد الذي كنت فيه (يقصد إنبولية) مدينة تسمى لوجارة أهلها كلهم مسلمون من أهل جزيرة صقلية يقام فيها الجمعة ويعلن بشعار الإسلام"[1]. كما أبلغ السلطان بالاحترام الذي يعامل به الإمبراطور السكان، حتى أنه ذهب إلى حد إسناد إدارة شؤونه الخاصة إلى الإداريين المسلمين، وكيف كان يحترم الإسلام وشعائره "ووجدت أكبر أصحاب الإمبراطور منفريدا المذكور مسلمين ويعلن في معسكره بالآذان والصلاة"[2]. وفي الجملة الأخير دليل واضح على أن ابن واصل قد شاهد ثكنات الجيش الصقلي الذي كان يتألف من فرقة من الجنود المسلمين. كما أعلم ابن واصل السلطان بأن الإمبراطور قد شرع ببناء بيت العلم "دار علم" المخصص لجميع "العلوم النظرية"[3]. توضح هذه المعلومات بوضوح أهمية الاتصال الشخصي والخبرة الميدانية في جمع المعلومات والمعرفة من الحلفاء والأعداء.

كما تحدث ابن واصل بصورة وافية عن الحالة السياسية لصقلية آنذاك، وعن نزاع البابا مع فريدريك الثاني وولديه كونراد ومانفرد، وعن التحالف بين البابوية والفرنسي شارل دانجو فقال إن البابا "كان قد حرّم منفريدا لميله إلى المسلمين وخرقه ناموس شرعهم. والبابا برومية هو خليفة المسيح عندهم، والقائم مقامه، وإليه التحريم والتحليل...وهو الذي يلبس الملوك تيجان الملك ويقيمهم..."[4]. وهذه الأخبار بالتأكيد لا يمكن أن تفشل في إثارة اهتمام السلطان.

وهكذا يمكن القول إن المهمة التي أوكلت لابن واصل يمكن وضعها ضمن إطار الاستعلام والاستطلاع والحصول على المعلومات، ومن المؤكد أن الأخبار التي نقلها ابن واصل مكنت الدولة المملوكية من بناء نوع من "المعيار" في الزمان والمكان مما سمح لها بتقييم علاقاتها مع صقلية والدول الأخرى، وطبيعة نواياها، في الوقت الحاضر، وكذلك بالمقارنة مع الماضي، وبالتالي تسهل عقد التحالفات فيما بينهما. ومن المؤكد أن الدولة المملوكية وصقلية لجأتا لإتباع أسلوب الأحلاف كوسيلة للمحافظة على بقائها وحفظ كيانها حيال الدول التي تتعارض معها في مصالحها وردع أعدائها، أو لتنظيم أمور التجارة أو للمفاوضة.

2-سفارة الأمير سيف الدين الكرزي والقاضي أصيل الدين خواجا إمام

تذكر المصادر الإسلامية أنه في شعبان سنة 660هـ/1261م وصل الأمير سيف الدين الكرزي والقاضي أصيل الدين خواجا إمام[5] رسولا السلطان الظاهر بيبرس إلى القاهرة بعد أن أدى سفارة لدى الإمبراطور مانفرد، وحملا معهما رسالة الأخير للسلطان[6]. لكنها لا تذكر تاريخ إيفادها أو الهدف منها. لكن من المحتمل أن هذه السفارة جاءت مباشرة بعد عودة ابن واصل من مهمته في صقلية، أي أن تاريخ إرسال السفارة من قبل بيبرس يعود إلى عام 659هـ/1260م.

---

[1] أبو الفداء، المختصر، ج4، ص38-39.

[2] ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص 248، أبو الفداء، المختصر، ج4، ص 39.

[3] ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص 248.

[4] ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص 249.

[5] لم أجد لهما ترجمة في المصادر والمراجع التي تم الرجوع إليها.

[6] ابن واصل، مفرج الكروب، ج6، تح. عبد السلام التدمري، ص 329-330، ابن عبد الظاهر (محي الدين ت. 693هـ/1292م)، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تح. عبد العزيز الخويطر، الرياض، 1976، ص 124-125، النويري (أحمد بن عبد الوهاب ت. 731هـ؟1332م)، نهاية الأرب في فنون الأدب، تح. محمد عبد الهادي شعيرات، ج30، الهيئة المصرية الغامة للكتاب، القاهرة، 1990، ص 56، ابن الفرات (محمد بن عبد الرحمن ت. 804هـ/1405م)، تاريخ الدول والملوك، تح. وتر. ليوني، ج1، كامبردج، 1971، ص 59، المقريزي، السلوك، ج1-2، ص 469.

وتذكر المصادر إنه تم استقبال هذه السفارة بكل حفاوة من طرف الإمبراطور حسب ما تقتضيه المراسيم الدبلوماسية التي كانت آنذاك وقرأت رسالة السلطان أمام الإمبراطور أكثر من مرة وهو "يردده ويتفهمه"، وإلى جانب هدايا أخرى من السلطان، قدم السفيران إلى الملك زرافة أعجبته كثيراً، وعدداً من المغول الأسرى، بخيلهم وأسلحتهم. استقبل الملك سفراء السلطان بأقصى قدر من اللياقة والتهذيب إذا "تجمل لهما تجملاً عظيماً"[1]. والسؤال هنا من هما هذان السفيران؟ لا تمدنا كتب تراجم العصر المملوكي وتواريخه وحولياته بمعلومات حول شخصية سيف الدين الكرزي باستثناء أنه أمير أي انتمائه إلى طبقة الأمراء المماليك الذي شغل معظمهم وظائف في البلاط المملوكي، وكان لديهم خبرة كبيرة في الشؤون العسكرية والسياسية. هؤلاء الأمراء كانوا عموماً "سياسيين" مهاراتهم المتعددة من الممكن أن تكون مفيدة جداً لجمع المعلومات الاستخباراتية وفي المفاوضة خلال بعثاتهم إلى الخارج[2]. وينطبق الأمر على القاضي أصيل الدين الخواجا إمام الذي لم نعثر له على ترجمة في المصادر التي تم استخدامها، لكن لقب الخواجا في اسمه يمكن أن يقدم تصوراً حول شخصيته والمهمة التي أنيطت به. استخدم لقب خواجا لكبار التّجار منذ القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، وكانوا يعدون أفراداً مهمين في الدولة، وكان سلاطين المماليك قد عهدوا لبعض من كبار التّجار بمهام السفارة بين الدولة المملوكية وغيرها من الدول، وقد أطلق اسم "الخواجكية" وواحدهم الخواجا الذي كان من ألقابه في ديوان الإنشاء "السفيريّ" الذي يفسره القلقشندي بقوله: "لسفارتهم بين الملوك وتردّدهم في الممالك لجلب المماليك والجواري ونحو ذلك"، و"الخواجا من ألقاب أكابر التجار الأعاجم من الفرس ونحوهم، وهو لفظ فارسي، ومعناه السيد" [3].

وبناء على ما تقدم يمكن القول إن هذه السفارة كانت على الأرجح لاعتبارات سياسية وتجارية، فتاريخ السفارة يأتي بعد الانتصار في معركتي عين جالوت ومعركة حمص وهزيمة المغول الذين تكبدوا خسائر كبيرة، وعلى إثرها رأى بيبرس أن يعزز صلاته مع صقلية وحاكمها مانفرد، فأرسل إليه مبعوثين لنشر أنباء توليه عرش مصر. وقد أراد من خلال إرساله الأسرى المغول أن تكون برهاناً حياً على النصر المملوكي على المغول، وقوة السلطان المملوكي. وكان ارسال السفارات والتهاني أثناء تحقيق النصر أهم ما يميز سياسة بيبرس في بداية استلامه للسلطة، فقد سعت الدبلوماسية المملوكية إلى إيصال قدر معين من المعلومات حول وضعها إلى جهات فاعلة أخرى في المنطقة، سواء لأغراض الثني (الردع) أو بهدف إقامة علاقات دبلوماسية جديدة[4]. لقد أولى الظاهر بيبرس أهمية كبيرة لعلاقاته الودّية مع صقلية، وحاول ألا يعكر صفوها شيئاً، فعندما قام الإمبراطور مانفريد بطرد مبعوثين من المماليك كانا ضمن سفارة سيف الدين الكرزي لأنهما لم يحترما آداب بلاطه، وفقًا لتعليمات السلطان ووفقًا للمبادئ الإسلامية، فألقي بهم بيبرس في السجن لدى عودتهم إلى القاهرة[5].

3-سفارة من مانفرد إلى بيبرس:

أرسل الإمبراطور مانفرد من جانبه إلى الظاهر بيبرس سفيراً يحمل رسالة وهدية سرعان ما وصلت إلى القاهرة إثر ذلك[6]، أي في عام 660هـ/1260م. لا يعرف شيء عن اسم المبعوث الصقلي وما هي مهمته، وبشكل عام لا توجد

---

[1] **ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص 124.**

[2] **HASSAN, Les relations diplomatiques, p. 171-175.**

[3] **القلقشندي، صبح الأعشى، ج6، ص 13، 15، ج14، ص 42، 73-74.**

[4] **HASSAN, Les relations diplomatiques, p. 174.**

[5] **ابن عبد الظاهر، سيرة الملك الظاهر، ص 125.**

[6] **ابن عبد الظاهر، سيرة الملك الظاهر، ص 125.**

إشارة في المصادر العربية الإسلامية عن مقاصد معينة لإيفاد صقلية لمبعوثيها وهداياها إلى البلاط المملوكي وقتذاك، وقد يكون الإمبراطور مانفرد قصد مجرد المجاملة للدولة المملوكية الناشئة والرد على سفارات السلطان الظاهر بيبرس. خلت المصادر فيما بعد من ذكر أخبار السفارات الشخصية بين الدولتين، ولكن هذا لا ينفي وجود اتصالات. ويمكن تفسير توقف السفارات بين الدولتين في تلك الآونة إلى الحروب التي انشغل بها كلا الحاكمين: بيبرس ضد الفرنجة ومغول فارس، ومانفرد ضد شارل دانجو والبابوية. ومما يؤكد على هذا ما أشار إليه ابن واصل بعد عودته من صقلية "إذا جاءت الأخبار بأن البابا صاحب رومية[1] وأخو ريد فرانس (يقصد شارل دانجو) اتفقا على المسير ضد مانفرد، وتمكنا من هزيمة جيشه، وقبضا عليه و"تقدم البابا بذبحه، وملك أخو ريدا فرانس البلاد التي كانت بيد الإمبراطور، واستولى عليها سنة ثلاث وستين وستمائه"[2].

خاتمة

وهكذا يمكن القول إن التقارب بين المماليك وصقلية يعود إلى عوامل أو إلى مصالح أمنية وتجارية، فالدولتان تملكان المفهوم نفسه أو النظرة نفسها تجاه أعدائهم وخاصة الغرب الأوربي. عندما تسلم الظاهر بيبرس السلطنة وجد نفسه أمام عناصر مختلفة تتحد للقضاء عليه وهم الفرنج في بلاد الشام والمغول في فارس، وما يتبع هؤلاء من قوات محلية مسايرة لهم خوفاً منهم، كدولة أرمينيا الصغرى، وطالما عملت هذه القوى للاتحاد في محاربة الظاهر بيبرس وكان طبيعياً أمام هذا الواقع أن يتبع السلطان سياسة تؤدي إلى شق الخصم من ناحية وإلى إنشاء تكتل من المؤيدين تناصره، وكان ذلك من خلال محالفته للقوى الكبرى في المنطقة، ومنها صقلية التي كانت بدورها محاصرة بقرارات الحرمان البابوية ومهددة بخسارة أراضيها وممتلكاتها لصالح حلفاء البابا. لقد كان للجانب الأمني الدفاعي دوراً كبيراً في حرص بيبرس على عقد علاقات مودّة وصداقة مع الإمبراطور الصقلي مانفرد هوهنشتاوفن، وذلك من أجل ضمان عدم دخول الإمبراطور في المخطط الفرنجي الذي تزعمته البابوية والذي كان يسعى لتدمير سلطنة المماليك اقتصادياً وسياسياً ليسهل السيطرة عليها عسكرياً، وبالتالي السيطرة على الأماكن المقدسة في بلاد الشام. كما شغلت العوامل الاقتصادية دوراً هاماً في قيام هذه العلاقات، إذا امتلكت صقلية موارد ومواد استراتيجية هامة كالمعادن والأخشاب، كان المماليك بحاجة ماسة لها، وبالمقابل أرادت صقلية الاستفادة من موقع مصر وسيطرتها على أهم الطرق التجارية بين الشرق والغرب آنذاك مما قد يخلصها من حصار البابوية والغرب الأوربي والحصول مباشرة على ما تحتاجه من المواد. وقد تجلت هذه العلاقات بتبادل السفارات والهدايا، وقد سعى كلا الطرفان لإظهار أقصى درجات الاهتمام بتدعيم الروابط السياسية والثقافية والتجارية بغرض رفع الحواجز بينهما، وتدعيم السلام، وبرز ذلك من خلال التدقيق باختيار الشخص المناسب للقيام بمهمة السفارة بين البلدين.

[1] للمزيد عن البابا صاحب رومية انظر القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص 472.

[2] ابن واصل مفرج الكروب، ج4، ص 249، 251. من المؤكد أن ابن واصل خلط بين الإمبراطور مانفرد وكونرادين ولي عهد صقلية. بالنسبة إلى مانفرد فقد دارت معركة بين قواته وقوات شارل أنجو بالقرب من بينيفنتو في جنوب إيطاليا في عام 665هـ/ 1266م، أدت إلى هزيمة مانفريد وموته وإلى استيلاء شارل على مملكة صقلية. فواصل كونرادين ابن كونراد الأول (أخ مانفرد) المطالبة بعرش صقلية حتى تمكن شارل من إلقاء لقبض عليه ومحاكمته بتهمة الخيانة وقطع رأسه. للمزيد انظر

References

ABO MUHSIN, S. H. A. K., *Khulfa' Salah al-Din Ind Ibn Wasil fi Kitabh "Mufarig al-Kurub fi Akhbar banu Ayyub" Dirasa Tarikhia manhajiyya*, Gaza, 2013.

ABU AL_FIDA', Al-Mukhtasar fi Akhbar al-Bashar, Al-Matba'a al-Husiaynia al-Masriya, Cairo.

AL-ABBASI, *Athar al-Aoual fi Tartib al-Doual*, ed. Abd al-Rahman Umira, Dar al-Jabal, Bayrouth, 1989.

AL-ASTAKHRI, *Masalik al-Mamalik*, ed. Mouhamad Jabar Abd al-Ali al-Jini, Dar al-Qalam, Cairo, 1961.

AL-AZAOUI, A., *Al-Ta'rif bil Mu'arkhin fi Asir al-Maghol wa al-Turkuman*, Wizarat al-Ma'arif, 1957.

AL-DAWADARI, *Kanz al-Durrar wa Jami' al-Ghurar, Al-Dura alUlia fi Akhbar bdi' al-Dounia*, ed. Birand Ratka, vol. 1, Qism al-Dirasat al-Islamiyya fil-Ma'had al-Almani lil-Athar, Cairo,1882 .

AL-HAMOUI, *Mu'jam al-Buldan*, Dar Sadir, Bayrout, 1977.

Al-HBOUBI, M. R. H. M., *Sikilia, Dirasa fi Ahoalaha al-Iqtisadia min khilal al-Masadir al-Bouldania min al-Qarn 3-9h/9-15*, Jami'at al-Koufa, 2012.

AL-MAQRIZI, *al-Maoua'idh wal-I'tibar bi Dhikr al-Khutat wa al-Athar*, ed. Muhammad Zynhoum, Madiha al-Shrkaoui, vol. 2, Maktabat Madbouli, Cairo, 1988.

AL-MAQRIZI, *al-Suluk li Ma'rifat Duwal al-Muluk*, éd. Muhammad Mustafa Ziyada, Matba'at Lignat al-T'alif wa al-Nasr wa al-Targama, vol. 1-2, Le Caire, 1934-1958.

AL-MUFFADL, *al-Nahj al-Sadid wa al-Dur al-Farid fi ma bada Tarih Ibn al-Amid*, trad. et éd. E. Blochet, *Histoire des sultans mamlouks*, vol. 14/3 20/1 et 12/3, dans *Patrologia Orientalis*, Imprimeurs-Editeurs, Paris, 1919-1929-1983.

AL-NU'AIMI, R., *Al-Alaqat al-Siasyya li-Daoulat Ilikhanat al-Maghoul 658h/1260d-756h/1355d*, Makka, 2013.

AL-NUWAYRI, *Nihayat al-Arab fi Funun al-'Adab*, , éd.Mohammad 'Abd al-Hadi Sha'ira, vol.30, al-Hai'a al-Misriya al-'Ama lil-Kitab Le Caire, 1990-1991.

AL-QALQASHANDI, *Subh al-Asa fi Sinaat al-Insa*, 14 vols., al-Matba`a al-'Amiriya, Cairo, 1913-1919.

AL-SAFADI, *A'yan al-Asir wa A'wan al-Nasir*, ed. Ali Abo Zayd, Nabil AboAmsha…, vol.4, Dar al-Fikr al-Mo'asir wa Dar al-Fikr, Bayrouth,-Damas, 1998.

AL-SAFADI, *Al-Wafi bil WafaYat*, ed.Turki Mustafa, Ahmad al-Arna'out, vol. 10, Dar Ihia' al-Turath al-Arabi, Bayrouth, 2000.

AL-SHAMI, *Al-Dibloumasia Nash'ataha wa Tatouraha wa Qoua'idaha wa nidham al-Hasanat wa al-Imtiazat al-Dibloumasia*, Dar al-'Ilm lil-Malayin, Bayrouth, 2007.

AMITAI-PREISS, R., *Mongols and Mamluks: The Mamluk-Ilkhanid war, 1260-1281*, Cambridge Studies in Islamic Civilization, 1995.

ASHOUR, S. A. F., *Al-Haraka al-Salibia*, Maktabat al-Anjlo al-Misria, Cairo, 2 vol, 2010.

ASHOUR, S. A. F., *Aourouba al-Usur al-Ousta*, Maktabat al-Anjlo al-Misria, 2 vol, 1986.

DHOUMAYRIYA, U. B. J., *Al-Safara wa al-Soufra' fi al-Islam*, n. D.

HAMZA, A. A. H., *Al-Alaqat al-Syasya bayn al-Dawla al-Ayoubia wa al-Imbratouria al-Roumania al-Muqadasa Zaman al-Hroub al-Salibyya*, al-Hai'a al-Misria al-Ama lil-Kitab, Cairo, 2001.

HASSAN, A. I., *Tarikh Jaohar al-Siqali, Qa'id al-Mu'iz li-Din Allah al-Fatimi*, Maktabat al-Nahda al-Misria, Cairo, 1963.

HASSAN, G., *Les relations ddiplomatiques entre les Mamelouks bahrides et les Etats chretiens en Orient (milieu au XIIIe-fin du XIVe siècle*), These de doctorat, Universite Paris 1- Pantheon-Sorbonne, Paris, 2010.
IBN ABD al-ZAHIR, *al-Rawd al-Zahir fi Sirat al-Malik al-Zahir*, éd. ‘Abd al-‘Aziz al-Hwaiytr, Riad, 1976.
IBN AL-FARA’, *Rusul al-Mulouk wa man Ysluouh lilrisala wa al-Safara*, ed, Salah al-Din al-Munajid, Dar al-Kitab al-Jadid, Bayrouth, 1972.
IBN AL-FURAT, *Tarih al-Duwal wa al-Muluk*, ed and tr,. U. et M. C, Lyons, Ayyubids, Mamluks and Crusaders, selections from the Tar’rih, Cambridge, 1971.
IBN KHULKAN, *Wafiat Wa Anba’ Abna’ al-Zaman*, ed. Ihsan Abbas, vol.5, Dar Sadir, Bayrouth, 1972.
IBN MANDHOUR, Lisan al-Arab, Dar Sadir wa Dar Bairout, vol. 11, 1956.
IBN WASIL, *Mufarig al-Kurub fi Akhbar banu Ayyub*, vol. 4, ed. Said Abd al-Fatah Ashour, Hasanin Muhammad Rabi’, Matba’at Dar al-Kutub wa al-Maktaba al-Wataniyya, Cairo, 1972, vol. 6, ed. Abd al-Salam Tadmouri, al-Matba’a al-Asriyya, Bayrouth, 2004.
MUSTAFA, N. M., *Al-Asir al-Mamlouki min Tasfiat al-Ojoud al-Salibi Ila Bdayat al-Hjma al-Uroubia al-Thania*, al-Ma’had al-Alami lil-Fikr al-Islami, Cairo, 1996.
RUNCIMAN, S., A History of the Crusades, tr. Nour al-Din Khalil, vol. 3, Alhay’a al-Masriyya, al-Ama, Cairo, 1998.
SALIM, S. A. A., SAYYID ABD AL_AZIZ, S., *Dirasat fi Tarikh al-Ayyoubin wa al-Mamalik*, Mu’asasat Shabab al-Jami’a, Iskandaria, 2004.
STEWART, A. D., *The Armenia Kingdom and the Mamluks war and diplomacy during the reigns of Het’um II (1289-1307)*, Brill, Leiden. Boston. Koln, 2001.
TAKOUSH, M. S., *Tarih al-Mamalik fi Misr wa al-Sham*, Dar al-Nafais, Bayrouth, 1997.
THORAU, P.,*Al-Zahir Baybars*, tr. Muhammad Jadid, Dar Qadmas, Damas, 2001.